نسيم السّحر

في أحوال الشهيد الأول: الشيخ محمد بن مكّي الجزيني (ت 876 هـ)

تأليف: الشيخ محمّد بن علي بن الوحيد البتدّيني

نسبةً إلى «بتدّين اللّقش» المجاورة لـ «جزّين»

من تلاميذ الشهيد

كان مجهولاً قبل اكتشاف المخطوطة

مختصر نسيم السّحر

إختصره عن الأصل
الشيخ شرف الدين محمد مكّي بن محمّد العاملي
(من أحفاد الشهيد الأول)
كان حيّاً سنة (1169 للهجرة/ 1755 م)

مختصر نسيم السحر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قد نقلت مختصراً من كتاب نسيم السحر في أحوال الشهيد الشريف، شمس الدين محمّد بن شرف الدين مكّي بن حامد بن محمّد بن طاها [كذا] بن عليّ المطلبي العاملي الجزيني.

فإنّه قد ذكر فيه أوّلاً آباء الشريف الشهيد محمّد بن مكّي وأجداده من الطرفين. ثمّ ذكر تاريخ ولادته، وكيفيّة حاله بعد أبيه ببلدة جِزّين، وابتداء شروعه في العلم، وسفره إلى الأمصار وسعيه في الأقطار لتحصيل العلم من العلماء الأعلام ، والتفكّر في ملكوت الملك العلّام.

وذكر ما جرى بينه وبين الكرماني المشهور عبد الأئمّة [كذا] القرشي، من المباحث اللطيفة والمناظرة الشريفة لمّا ورد بغداد، وكان ذلك في المدرسة النظامية. وما جرى بينه وبين العلّامة الفاضل جمال الدين الحسن بن يوسف بن المطهّر الحلّي من المباحث البهيّة والمسائل المرضية، وذلك في الحضرة الحائرية، قال: فإنّ الشريف شمس الدين محمّد بن مكّي قدس سره ، لمّا ورد الروضة الشريفة المقدسة الحائرية لزيارة مولانا وسيدنا أبي عبد الله الحسين عليه السلام ، لم يكن قبل ذلك رأى الفاضل العلّامة قدس سره ، فلمّا رآه جرى بينهما ما قد جرى من المناظرة والمطارحة، وأجاب كلّ واحد منهما جواباً عن قوله، بأدلّة عقلية ونقلية أوّلاً وثانياً وثالثاً، فرضي الشهيد من العلّامة، إلّافي بعض المسائل فبقي متردّداً والعلّامة قدس سره، قد تعجب من الشريف الشهيد شمس الدين محمّد بن مكّي قدس سره لقوة حدسه، وبلاغته واستحضاره.

وقد اعتمد [فوقها «ونوى»] الشهيد بأ نّه إذا [فوقها «قدر»] زار الأمير عليه السلام يرجع إلى عند شيخ المشايخ العلّامة في الحلّة إن شاء الله. ففي الأيّام التي كان الشهيد قدس سره فيها في النجف عند الأمير، فإذا قد مات العلّامة قدس سره ودفن في النجف. فتألّم الشهيد لذلك كثيراً.

ثمّ إنّ الشهيد قد سافر إلى الحلّة واجتمع بعلمائها وقرأ على فضلائها، وبقي مدة في العراق، حتّى اشتهر ذكره في سائر الآفاق أكثر من شيوخه على الإطلاق. بينما هو في الحلّة إذ قد ورد عليه مكاتيب من عليّ بن مؤيّد سلطان العجم، وفيها الحثّ والالتماس منه على الحضور لديه، للتشرّف بقدومه وللانتفاع بعلومه. وأكثر من التلطف والتودد له فيها، فأجابه واعتذر له بما يناسب الحال والمقال.

ثمّ إنّه بعد إقامته بالحلّة عزم على الرحيل إلى بلد الله الأمين ، ثمّ إلى بلده جِزّين . فتعرّض له حينئذٍ بالعراق السادة الكبار والعلماء الأخيار، فتمنّوا دوام صحبته الشريفة ومطارحته اللطيفة، والتمسوا منه السكنى والإقامة وسلّموا له بالإمامة، فأبى إلّاالانطلاق وعقد للرحلة حبل النطاق، فتودّع من أُولئك الأجلة، وزيارة الأئمّة سادة الأُمة، ورجع بعد زيارة بيت الله الحرام وزيارة سيّد الأنام إلى بلده جِزّيْن، معدن الكرم والعلم والدين، فأقرّت به عيون العباد والمحبّين، وأقبلت عليه أهل البلد،وحضر لديه الخاصّ والعام ، وسار ذكره في الأقطار، وصار فضله لا يخفى كالشمس في رابعة النهار، ولم يزل مشيّداً لدين الله، وفي أكثر السنين حاجّاً بيت الله ، إلى أن قتل «ذبيح الله».

قال : ولقتله أسباب، وهي: أنّ رجلاً عالماً فاضلاً بزعمه من علماء الشافعية، وهو عباد ابن جماعة، كان شريكاً له في الدرس في أوائل التحصيل والدرس في المعقول، كالنحو والمنطق والأُصول، على بعض الشيوخ في الشام والقدس ومصر والغرب. فلمّا رأى طيران الشهيد في زمان قليل على معارج الكمال في العلوم كلّها العقلية والنقلية، وعلم أ نّه قد حاز من العلوم الأدبية واليقينية بأوفر نصيب، وضرب في سائر العلوم بقدحي المعلّى والرقيب، ورأى رجوع الناس إليه إليه كلّها [كذا] في التدريس والاستفتاء في الشام وغيرها، ورأى ملوك زمانه قد أقبلت عليه، وجميع الأحكام الشرعيّة رُدّت إليه، وهو بين العام والخاصّ على الطريقة المحمودة، وقد طلع من أُفق العالم كواكب ذكره المسعودة، وركب متن الشريعة الغرّاء، ولزم المحجة البيضاء، تحرّك عرقُ الحسد والعصبية في نفسه الخبيثة، فسعى بالفساد، وبالغ في التشنيع بين العباد على الشريف الشهيد شمس الدين محمّد بن مكّي.

وقد دفع أموالاً كثيرة، وبذل أجناساً غزيرة لتعلو كلمته وتنفذ شوكته، وتستقر أحكام الشريعة إليه بانفراده، فلم يحصل على طائل، ولم يرجع إليه من الشام شخص يُعتبر، ولا أقبل عليه أحد بالخير يذكر. فاشتدّ لذلك غضبه، وغلظ حسده، فاتّهمه حينئذ بالرفض.

وشنّع عليه عند علماء السنة وعند الملك بيدمر. وأظهر ذلك في المجالس والمجامع المعتبرة في الشام وصيدا وحوران وبيروت وطرابلس وغير ذلك . وشدّد في ذلك، حتّى أ نّه قد استعان بكبار الشام، فضيّقوا عليه أ نّه لا يخرج من الشام . وحبس في القلعة الشامية خوفاً منه ، بأن يخرج من أيديهم، ويُبطِل أقاويلهم الباطلة، وخيالاتِهم الفاسدة عند جميع الخلق في الأقطار الشامية.

ولمّا أدخلوه القلعة اختصّ مجلسه بعلماء الشام ومعتبريها، وصاروا يتردّدون إليه في كلّ يوم، وكانوا يناظرونه في كلّ علم في المعقول والمنقول، على جميع اختلاف العلوم، فيوضح ما يقولون، ويكشف لهم عما يسترون ويكتمون، ويصحّح ما يفسدون.ولم يزل في كلّ يوم ينشر عليهم لآلي فوائده السنية، وفي كلّ ليلة يعمّهم بمواهبه وألفاظه المضيئة، بما يليق بحالهم من الآيات القرآنية، والأحاديث النبويّة، رادّاً على ابن جماعة، بمحضر الأماجد، مبطلاً ما ينسبه إليه من العقائد بما هو أحسن عقلاً، وبما اتّفق عليه شرعاً وعقلاً . وقد كتب ابن جماعة للشهيد وهو في القلعة ردّاً على الشيعة في صحّة المتعة.

وبقي سنة كاملة في القلعة. فبينما هو في تلك الحال إذ قد ورد عليه مكتوب عليّ بن مؤيّد سلطان العجم مع رسوله المصلح العارف الكامل الذكي الأديب شمس الدين محمّدالآوي . وكان بينه وبين الشريف الشهيد شمس الدين محمّد بن مكّي مودة ومكاتبة على البعد إلى العراق ثمّ إلى الشام. فطلب منه أخيراً التوجه إلى بلاده، في مكاتبة شريفة أكثرفيها من التلطف والتعطف والتعظيم والحثّ للشيخ الشريف محمّد بن مكّي، كما قد كان كتب له سابقاً غير مرّة. فاعتذر إليه وكتب جواباً شريفاً لطيفاً معتذراً، كما كان قد اعتذر إليه سابقاً. وكتب له مع الجواب رسالة شريفة، مشتملة على المسائل العجيبة، والنكات الغريبة، بما يناسب حال الملوك في مجالسها، وبما يكون به بقاء ملكها. فلمّا رآها الصالح العارف الأديب شمس الدين محمّد الآوي قال: هذه الرسالة حسنة جدّاً، ولكن لا تصلح ولا تناسب إلّاله ولأمثاله، فينبغي أن تكتب شيئاً ما يعمّ نفعه ويكثر فعله في كلّ آن وزمان؛ لأنّ قولكم الآن علينا حجة، ونحن لا يمكننا الوصول إليكم في كلّ وقت،فاستصوب كلامه واستحسن مقاله . ثمّ شرع في تصنيف اللمعة. فلمّا شرع فيه فلم يدخل عليه أحد ذلك اليوم، وكذا ما

بعده إلى مدة سبعة أيّام، وكان تمامها في سابع يوم، ولم يدخل عليه أحد قطّ إلّاخادم لا يتوقّف بمجلسه ، فلمّا فرغ في اليوم الثامن كرّت الناس عليه، والعلماء والوزراء وأرباب الدول كعادتهم رجعوا إليه . فبينما الناس إليه يتردّدون إذ قال له رجل ممن له مزيد صحبة مع الشريف شمس الدين محمّد بن مكّي: إنّي في كلِّ يوم كنت أُحِبّ الحضور عندك والاستفادة منك، لكن كلّما عزمتُ على أن أنقل قدميّ يعرض لي عارض يصدّني ويمنعني. ورأيت مرةً في المنام قائلاً يقول لي: لا تمضي [لا تمضِ] إلى عند الشيخ الشريف شمس الدين محمّد بن مكّي إلّابعد سبعة أيّام. فتعجبت من ذلك».

فقال له الشريف الشهيد: «الله عالم السرائر، ومطّلع على الضمائر، ولعلّ الخير فيما وقع في قضائه وقدره».

ولما انقضت السنة عليه وهو في القلعة، ورأى الناس منه ما قد رأوا، من الصبر والآداب، وحسن العشرة والأجوبة، وبليغ الألفاظ ومحاسن في المجالس، ولم يقع لأحد عليه اعتراض، ولا صدر عنه شي ء يوجب الانقراض . فأُخبِر بيدمر بأنّ الشيخ الشريف شمس الدين محمّد بن مكّي قد بالغ في الإنصاف والردّ على ابن جماعة، ومن كلّ بهتان قيل فيه بالأدلة العقلية والنقلية، بالأحاديث(خ ل: من الأحاديث) النبوية والآيات القرآنية، وبأقوال العلماء والحكماء الذين يشار إليهم في البرية، فانظر ماذا ترى. فلمّا بلغ بيدمر ذلك وعلم كذب الوشات، وما ابتدعوه العداة [كذا]، تعجّب مِن أمره وحسن صبره وقال: «**لأيّ شيء لم يخبرنا بما له ولم ينبئنا بمقاله؟**». ثمّ كتب له كتابة من قبل نفسه، من غير أن يُطلب منه أويلتمس له، جبراً لخاطره، وتعظيماً لشأنه، وجلالة لمقامه، وتعرضاً لمطالبه وقضاء حوائجه، فقيل للشيخ شمس الدين الشريف الشهيد محمّد بن مكّي: ينبغي أن تكتب شرح حالك، لدفع ما لعلّه أن يقع بك وبولدك أو بمالك، بسبب قول الواشي. فأبى ذلك، فأُلحّ عليه فلم يفعل ذلك، ثمّ قيل له أيضاً. فحينئذٍ قال: «يجب على المرء أن يسعى بما فيه خلاص نفسه أو صلاح نفسه ثمّ كتب إليه مكتوباً بما يحسن أن يخاطب به الملوك وأرباب الدول والسلوك، بما اقتضاه الحال والمقام، فمن ذلك القول البليغ والنثر الفصيح الذي كتبه الشيخ هذا الشعر:

(غير موجود في النسخة)

وبعد، إلى آخر ما كتب من القول البليغ، والنثر الفصيح. ومضمون ذلك أ نّه ينبغي التدبر في عواقب الأُمور، ومنه أن يعلم ما في الصدور «**أ فلا يعْلمُ إذا بُعْثِر ما فِي الْقُبُورِ * `و حُصِّل ما فِي الصُّدُورِ * `إنّ ربّهُمْ بِهِمْ يوْمئِذٍ لخبِيرٌ**».ومنه أ نّه يجب على العاقل العمل بما وردفي الشريعة المطهّرة، التي وردت على لسان نبيّنا محمّد خير البرية، (صلاة الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه الأكرمين). قال، فلمّا بلغ برقوق كلامُ الشريف شمس الدين محمّد بن مكّي [و] تدبّر حسن كلامه، وعلم صدق مقاله، أمر بأن يحضر جميع علماء الشام، ومن كان من أهل الحل والعقد،ويحضر الشيخ شمس الدين محمّد بن مكّي، ثمّ يناظروه ويناظرهم بما اقتضته الشريعة المطهرة. فحينئذٍ حضروا بأجمعهم واجتمعوا بأسرهم في الشام، وحضر كلُّ من له شأن في الأنام، وجرت بينهم ثلاثة أيّام المناظرة، والله شاهد والناس ناظرة وكانوا [كذا] القوم في ذلّ وانخفاض وهو في علوٍّ عليهم وارتقاء وظهرت له الغلبة عليهم، واتّضح أنّ الحق معه لديهم. فعلم بذلك العادل برقوق الملك، فعظُم لديه، وتوجّه بكلِّ وجهٍ إليه، وكتب له زيادة على ما مرّ، بعد تحيّةٍ لطيفةٍ وكلمات منيفة، فمنها هذه:

إلى المولى الفاضل العارف، الغوث البدل المكاشف، في المشارق والمغارب، أُسوة الفضلاء

المحقّقين وقدوة العلماء المتبحّرين، شمس الملة والحق والدين محمّد بن مكّي؛ فإنّه يختار ما يشاء، ويسكن حيث مايشاء في الديار الشامية، إن اختار الشام، أو صيدا، أو بعلبك، أو القدس الشريف .
فإنّك الفاضل المعظّمُ لدينا، والصادقُ المحِقُّ فيما ورد منكم علينا، فلتسكن أنتم ومن معكم أبد الآباد في ديار الفضل، ولتقم أنت ومن ينسب إليك، أبد الآباد في أمصار العدل. ليهتدي بهداكم السالكون، ويقتدي بكم الراسخون. فأنت تاج الشريعة، ومنهاج الحقيقة، أحقّ أن تتّبع، وكلامك أصحّ بأن يُستمع.
وخرج من القلعة مكرّماً معظّماً، ثمّ أ نّه قيل للشيخ: ينبغي أن تقيم ، في كلّ مكان ذكراً و في بعضها الفصل الذي يناسب لها، لرضى الخليفة المؤيّد، والمنصور المؤيّد.
وكان قدس سره إذا حضر في مكان من الشام أو بعلبك أو صيدا يدرّس ليلاً في مذهب الشيعة للخواصّ من الشيعة تقيّة.
وبقي على ذلك مدّةً ساعياً في تشييد الدين، وإرشاد الناس إلى الحق المبين، معيناً للضعيف، ناصراً للمظلوم، مغيثاً للملهوف، ماثراً [مؤثراً] على نفسه إخوانه، مروّجاً للأحكام الشرعيّة، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، راحماً للصغير، موقّراً للكبير، لا تأخذه في الله لومة لائم. إلى أن خرج رجل وادّعى النبوة، وارتدّ عن مذهب الإمامية، وخرج عن الدين. وكان اسمه محمّد بن تقي الدين الجبائي البابلي ، وفعل أشياء بالسحر والشعبذة، مما ويتعجب منها غاية العجب. وأكثر القرى مالت إليه، وجميع الناس الهمج انكرّت عليه، لمّا رأوا منه إظهار العجائب وأفعال الغرائب، ممّا لو ذكرته لطال. منها: أ نّه كلّم الناس الذين في جبل عرفات في وقت الحجّ، وهو واقف على ظهر البرج الذي بناه وتحصن به. وقيل: إنّه قد كان عهد إليهم، وطوى الهواء [؟]، على ذلك. فلمّا رجع الحجاج وسألهم من كان حاضراً وسامعاً، فقالوا: نعم نادانا وقال كذا وكذا. ومنها أ نّه قد أظهر يوماً البساتين وفيها الأشجار والأزهار، وذلك بالشعبذة. فأُخبر الشيخ شمس الدين محمّد بن مكّي حينئذٍ، وكان قريباً لذلك المكان الذي فعل به ذلك، ولم يعلم أنّ الشيخ شمس الدين محمّد بن مكّي في ذلك المكان. فلم [فلمّا] علم الشريف محمّد فقال: «يا أيها الناس، لا تعجبوا من أشجاره وأزهاره التي رأيتموها. وانظروا الآن ماذا يُفعلُ بزروعه وخضره التي توهّمتموها». قال: فأخذ ورقة وقطعها أربعة قطعٍ، وكتب على كلّ ورقة شيئاً من الأسماء، ثمّ رمى تلك الأوراق في الهوا إلى الجهات الأربع، الجنوب والشمال والشرق والغرب، فلمّا رمى بكل الأوراق، فما كان أقلّ من لحظة إلّاوقد ظهر جراد منتشر في كلّ ناحية، وقد غطّى الأرض والأُفق، والناس ينظرون إلى ذلك، فأكل ما قد كان صنع بسحره وبشعبذته وكأ نّها لم تكن.
ثمّ أرسل إليه الشيخ شمس الدين محمّد بن مكّي جماعةً من المسلمين، على أن يترك هذه الشعابذة: «ولا تكن من الجاهلين، ولا تشغل الناس عن الدين بما لا يجوز في شريعة سيّد المرسلين». فلم يرتدع، ولا لقوله سمع. ثمّ أرسل إليه ولده الشيخ الصالح النجيب الأصيل الشيخ ضياء الدين.
وأرسل معه أربعين عالماً من تلامذته الأخيار، ومعهم جماعة من أُولي الابصار. فلمّا ساروا إليه لينصحوه، وبالموعظة الحسنة لعلّهم ينفعوه، وعن جهله يردّوه، علم بذلك فتلقّاهم للقتال في وادي زبدين، وهي قرية من قرى الشقيف، ومعه جماعة كثيرة، وشرع يقاتلهم ويتهدّدهم.
فقالوا له: سبحان الله، نحن ما أتيناك للقتال، ولاللشنيع من الأفعال ... فقال: إنّي أُريد أن أرميكم بالفظيع. ثمّ غدرهم، وبسوء صنيعه قد قتلهم، إلّاخمسة منهم ابن الشيخ شمس الدين محمّد بن مكّي،

ضياء الدين عليّ المذكور، فإنّه قد تركهم. ثمّ إنّه قال للشيخ ضياء الدين عليّ ذي الرأي السديد: ارجع إلى أبيك الشيخ الفاضل المجيد، وقل له أن يتركني، وفي أفعالي لا يتعارضني.
فلمّا صدر من المرتدّ ما ذكرنا، رجع ولد الشيخ شمس الدين محمّد بن مكّي إلى بلده جِزّين، فأخبر أباه بما جرى، وأخبره بما قال. ثمّ أخبر أباه أيضاً بأنّ جميع قرى البلاد من السواحل كلّها وما فوقها قد مالتْ إليه، وتابعوه على فعله القبيح، ولم يبق على طريق الصواب إلّاالقليل من أهل القرى والأصحاب فتكدّر لذلك وتأمّل، وقال: لا حول ولا قوة إلّابالله العلي العظيم، إنّ هذا الضال قد ارتدّ عن شريعة سيد المرسلين، فزجْرُه وردعه عن أفعاله القبيحة، وحركاته الشنيعة بالقتال لعلّه يستلزم أن يُقتل من لا يستحقّ القتل من الجانبين، وأ نّه لا ينبغي القتال بين المسلمين، فكيف مع الأصحاب والمحبين، وأكثر القوم أقارب، وكلهم على الدين القويم. فإنّا نتأمّل في أمره إن شاء الله تعالى بما يليق، وإنّ الله بنا لرؤف شفيق. فحينئذٍ كتب الشيخ الشريف محمّد بن مكّي إلى الملك بيدمر - بعد التحية وشرح القضية - : أنّ رجلاً من السواحل، قد ارتدّ عن مذهب الإسلام، وأ نّه قد ادّعى النبوة بعد نبينا محمّد سيّد الأنام. وفي الصحيح: «أ نّه من ادّعى النبوة بعد سيد المرسلين، يُقتل باتفاق المسلمين» ولقوله عليه السلام : **«لا نبيّ بعدي»**. ولقوله تعالى: **«و لكِنْ رَسُول اللهِ و خاتم النَّبِيِّين »**. وأ نّه قد أضلّ كثيراً من المسلمين. فيجب على الرؤساء في الملة الحنفية المحمّدية، المساعدة والمبادرة على قمع من خالف الشريعة المطهّرة بارتداد، وإقامة الحدّ عليه إن ظهر (خ ل: على من يظهر منه) منه فساد أو عناد. وأنّ الله سبحانه قد منّ عليك بالرياسة الدنيوية. وأ نّه (جلّ شأنه) قد منّ وأنعم على هذا العبد بمعرفة الأحكام الشرعيّة التي جاء بها نبيّنا محمّد سيّد المرسلين، (صلوات [الله] عليه وعلى أصحابه أجمعين) فيجب علينا العمل بمقتضى أوامره ونواهيه. وأ نّه يجب عليكم مساعدة الشريعة الغرّاء، ولزوم المحجّة البيضاء، لدفع هذا الضالّ. فالمسؤول والمأمول من الخليفة القاهر الباهر، والملك الناصر القادر الرافع لأعلام الرايات الدينية، والقامع لمعاند الشريعة النبوية . (خلد الله ملكه، وجعل الدنيا بأسرها ملكه) أن يقابلنا بجهوده المشكورة ، وأن يساعدنا (خ ل : يؤيّدنا وينصرنا) بجهوده المشكورة ، وعساكره المنصورة ، لردع هذا الضالّ المضلّ عن الشرع الشريف ، والمرتدّ عن الدين المحمّدي الحنيف، فركب بيدمر بجنوده وعساكره سريعاً، وأرسل إلى الشيخ شمس الدين محمّد بن مكّي وأخبره بسيره بجنوده وعساكره فتلقّاه الشيخ شمس الدين محمّد بن مكّي، وجميع أهل جزّين، وجميع أهل قرى جزّين والريحان ومشغرة وكلّ النواحي الجبلية إلى وادي الزريرية [الزرارية]. وقال: هاهنا النزول لفصل هذه القضية. فلما استقرّت (خ ل: وصلت) العساكر والجنود في المكان المذكور، أرسل الشيخ شمس الدين محمّد بن مكّي إلى الرجل المرتدّ اليالوشي: اعلم أ نّه لا ينبغي منك أن يكون ما قد كان ، لكن ما قدّر الله يكون وسوف يكون. وأنّ لنا عليك حقوقاً فلِمَ تنكرها، وأ نّك لتعلم أنّ الله قد منحنا علوماً لا تعلمها، من علم السيما، والشعبذة، وعلم السحر، وغيرها، وأ نّي لأسترها وأكتمها خوفاً من الحي القيوم، وتصديقاً لنبيّه محمّد مخزن أسرار العلوم. وأنت بحقير منها، قد ضللت عن الطريق، وخالفت نصيحة كلِّ صاحب وصديق وأ نّك قد خالفت الطريقة المصطفوية، ومِلْت عن الشريعة المطهرة المحمّدية. واعلم بأنّ هذه الجنود والعسكر قد كانت أرادت السير إليك، والنزول بخيلها ورجلها عليك، لسفك دماء ما قد جمعته من الرجال لديك. وهدم الحصون التي قد شيّدْتها وبنيتها، جزاءً لما قد فعلته من سفك دماء المسلمين، ومخالفة شريعة سيد المرسلين. ولكن ردّيناها [كذا]، وعنك قد صدّيناها إلى بعد الاجتماع معك منفرداً. فإنّي

بنفسي أُريد الوصول إليك، ومعي رجل لا غير. وأنت والقوم الذين لديك، لا تخافوا من أن يقع مني بكم ضير.
ملخّص ما كتبه (خ ل: ما ذكر) شمس الدين محمّد بن مكّي. فلمّا وصل مكتوب الشيخ إليه، أبعد القوم، وبقي منفرداً في البرج ذلك اليوم. ثمّ سار إليه الشريف الشيخ شمس الدين محمّد بن مكّي، ومعه ولده ضياء الدين عليّ. فلمّا دخلا عليه في حصنه وقلعته ، فتلقّاهما بقلب شديد، مُصرّاً على ما هو عليه من الحوبة، فعلما ارتداده، وأ نّه لا تقبل منه التوبة. ولقد كان قبل دخولهما عليه، وحال سيرهما إليه، رجل من المخلصين، والثابتين على الحقّ القويم والدين المتين، ومن المقرّبين عند اليالوشي، لكن من الذين ظاهرهم معه وقلوبهم عليه، قد كان عهد إلى الشيخ: فإذا توجّهت إليه، وأقبلت عليه، ودخلت البرج، فإنّي أكفِكه إن شاء الله تعالى. فإنّي أُشهد بالله أ نّه مرتد، وكاذب في دعواه، وأ نّه من الضالّين المضلّين. فلمّا دخل عليه شمس الدين محمّد بن مكّي، وولده الشيخ ضياء الدين عليّ، قضى أمره والله بالغ أمره. ثمّ إنّ الشيخ قد أرسل ولده إلى الجماعة التي كانت مجتمعةً لديه، وإلى بقية أهل القرى ليسألهم: هل كنتم صدّقتم دعواه، أو كنتم اعتقدتم ما صنعه (خ ل: استحسنه) وافتراه، فلمّاسألهم قالوا: حاشا لله، بل كان عندنا من الكاذبين، وكنّا نعتقد أ نّه قد ارتدّ عن الدين، لكنّه لمّا بالغ في بذل المأكول والملبوس، والناس أكثرهم عبيد ما يأكلون ويلبسون. حتّى أ نّه قد نُقل عن ولد مراهق قد قال لأبيه: «يا أبتي، اليالوشي أنبيّ هو؟» فقال له أبوه: «يا بنيّ،ألا ترى إلى كثرة هذه الكباب . يا بُنّي إذا قيل: أنبيّ، فقل: نبيّ ونصّ. يا بنيّ، كُل من هذه الكباب وقُصّ حتّى تغصّ. وقال: يا بنيّ، إذا قالوا [كذا] الناس: إنّ العجل ربّ، فنحن نأخذ الحشيش ونطعمه. فليس علينا من كفر بالله أو ذنب؛ فإنّ الدين له من يحفظه ويحْميه ويُقيمه، والدين فضل من الله، والله يؤتي فضله من يشاء». انتهى.
فحينئذٍ قد رُدّت الناس إلى مأمنهم بعد خوفهم من برقوق وعساكره. وأمر الشيخ ضياء الدين - ابن الشيخ - الناس بأن يردوا إلى منازلهم، بعدما نصحهم ووعظهم. وصاروا مطمئنين، وهم على ما كانوا عليه من الدين لله ربّ العالمين. وجلس (خ ل: وأقام) الشيخ ولد الشيخ شمس الدين محمّد بن مكّي، ضياء الدين عليّ، مدّة في السواحل، لإرشادهم ووعظهم ودلالتهم على الدين، كما هو شأن العلماء الأكرمين الأبرار، والفضلاء الأخيار، والشيخ الشريف شمس الدين محمّد بن مكّي في بلدة جزّين، والناس مقبلة عليه للعلم والدرس في كلّ وقت وحين، حامدين شاكرين، برهة من الزمان، مستقرّين آمنين مطمئنّين. فبينما هم في ذلك، إذ قد خرج رجل آخر اسمه: يوسف بن يحيى وارتدّ عن مذهب الإمامية أيضاً، وصار عدوّ الإمامية. وشرع في التشنيع عليهم عموماً، وعلى الشيخ الشريف شمس الدين محمّد بن مكّي خصوصاً وأظهر بعض مصنّفاته، مما يظهر منها تشيّعه، كرسالة المقدسية، ورسالة الدرة المضيئة في الأحاديث المروية، ورسالة التكليفيّة، وكتاب جامع البين، وغاية العالمين، وغير ذلك من الأجزاء التي لم يذكر لها اسم. وكتب محضراً شنع فيه عليه بأ نّه شيعي، وعمدة الشيعة ومرجعها، والمروِّج مذهبها، وهذه الكتب بخطّه وتشهد بذلك. وكتب معه ووافقه على الارتداد عن مذهب الإمامية، والخروج [عن] طريق الحقّ سبعون رجلاً من الجبل، ممّن كان يعتمد مذهب الإمامية ويعتقده وألف رجل من السواحل، ممن كان ظاهرهم التسنن ٦، بغضاً وحسداً وعناداً للشهيد شمس الدين محمّد بن مكّي. حيث إنّه في كلّ وقت آمر بالمعروف وناهٍ عن المنكر، وإنّه مرجع للخاصة والعامة. وكتبوا بخطوطهم، وعرضوا ما كتبوه في ذلك على

قاضي الشام ابن جماعة، وقاضي صيدا، وقاضي بعلبك، وقاضي بيروت، وقاضي القدس والخليل. وسعوا بأنْ يحضر في القدس والخليل. فأُحضر فيه الشيخ شمس الدين محمّد بن مكّي، وقرئ عليه المحضر الذي كانوا كتبوه. فلمّا قرئ عليه بمحضر جمع عظيم في القدس، فأنكروا عليه أشدّ الإنكار، فقيل له: كيف يكون منك هذه الأشياء التي قد سمعتها، والكتب التي قد صنّفْتها؟ فأنكر ذلك، رعاية للتقية الواجبة، ولزيادتهم في البهتان. فقيل، ألا ترى إلى هذه الشهود فقال: «سبحان الله ما شاء الله كان، **«هلْ يسْتوِي الّذِين يعْلمُون و الّذِين لا يعْلمُون (٣٩:٩) اللهُ يجْمعُ بيْننا(٤٢:١٥) و لهُ الْحُكْمُ و إليْهِ تُرْجعُون »(٢٨:٧٠)»**. ولمّا صار في هذا المحضر ما صار، من المناظرة والمعارضة ما لا يمكن نشره، ولا حصره، وهو بإذن الله ومن جوده وكرمه، مسلِّط العلم الشريف [ابن مكّي] عليهم. ومع كثرتهم عليه وحسدهم له، فله الخطر والعظمة لديهم . ولمّا علم بذلك برقوق، بعد إحضارهم لديه ومناظرتهم له، وأنّ له عليهم الغلبة والقوة الباهرة، في علم المعقول وعلوم الآخرة، فغضب على من سعى في ذلك، وأمر برجوعه إلى الشام وإلى حيث شاء، ويكون مقدماً على الخاصّ والعام. فرجع إلى الشام لأُمورٍ اقتضت ذلك وأضمروا له السوء القوم اللئام، واضطرمت نار الحسد في جلودهم، وأغرقت في بحار الظلمات قلوبهم.

ولمّا رُدّ إلى الشام، وأقام بها مدة من الزمان، والناس مقبلة عليه للاستفادة كما كان، بين فائدة يبديها، أو ضالّة يهديها، نهاره في التدريس والإفادة، وليله في التفكّر في جنب الله سبحانه وتعالى والعبادة. إلى يوم جمعة والناس تسعى إلى المسجد الجامع، مسجد يزيد، والناس يأتونه عن كلِّ جانب قريب وبعيد. وإذا قد دخله الشيخ الشريف شمس الدين محمّد بن مكّي للصلاة. وكان حينئذ ممن يترقّب وروده إليهم، وقدومه عليهم، ودخوله إلى المسجد المذكور، من القوم الذين ضلّوا عن سواء الطريق، وقد كان قد كتب أسماء العشرة المبشرة ونوى أ نّه إذا دخل، وضعها في حذائه فإذا خرج من المسجد يرميه بالزور والبهتان. ففعل ذلك، فلمّا خرج الشيخ الشريف شمس الدين محمّد بن مكّي، أحضروا له الحذاء، فسقطت منه الأوراق، وهي عشرون ورقة، في كلِّ حذاء عشرة. فلمّا سقطت منه الأوراق المعهودة، قرأوا ما فيها من الأسماء العشرة المبشّرة، فغضبوا لذلك، ونادوا بأعلى الأصوات: ألا ترون إلى الشيخ شمس الدين بن مكّي، الذي يعظِّمه برقوق وغيره، وهذا فعله. ألا ترون علامة رفضه [!؟] فبادرتِ الناسُ، واجتمع خلق كثير، وينظرونه، وهم ينظرون سوء فعلهم، ويسمعون أكاذيبهم، والمنادي ينادي بينهم في أسواق الشام: «من كان مسلماً فليساعد على إحراق شمس الدين بن مكّي». فاجتمع من الخلق ما لا يحصى، وتعصبوا على الباطل. والمحب والصديق صار خائفاً، وهو ساكت.

ولمّا اجتمع رأيهم على قتله، من غير مراجعة أرباب الدول كبيدمر وغيره، فقال أهل الشام: نحن نجتمع على قتله قبل أن يعلم بيدمر، فيأمر بإطلاقه كما سبق. وأما إذا فعلنا به المراد فلا يخالف ما اجتمعنا عليه. بعد ذلك اختلفوا في صفة قتله. فمنهم من قال: نُمثِّل به. ومنهم من قال: نحرقه. ومنهم من قال: نضربه ضربة واحدة بالسيف. فقال قائل نُحضر جملين، ثمّ نربط يديه في أيديهما ورجليه في رجليهما، ثمّ نصيح بهما، فيقوما بسرعة، فيُقطع قطعاً. فلمّا أوثقوه وربطوا يديه ورجليه كما اختاروا، ثمّ صاحوا بهما صيحةً عظيمة، فلم يقوما، ولم يزولا عن مكانهما. فتعجب الحاضرون، وتركوا قتله بهذه الصفة. ونادوا ثانياً، من كان مسلماً فليساعد على إحراق ابن مكّي. فحينئذٍ قد اجتمع حطب كثير بالرحبة عند القلعة، وجاؤوا بخشبة غليظة طولها اثنى عشر شبراً [كلمات

مشطوبة] فأدخلوه فيها، وألقوه في وسط الحطب، ثمّ أضرموا النار في الحطب. فاشتعلت واضطرمت النار، وهاجب والتهبت حتّى لهيبها علا على حائط القلعة. والناس ينظرون وينادون: «اللهمّ أحرق الخشبة، اللهمّ أحرق الخشبة». فإذا خمدت النار سريعاً بقدرة الله، مع كثرة الحطب، ولم تحترق الخشبة، ولا أضرّتْ بها النار. وذلك من فضل الله العزيز الجبار، [تحتها]: «الكريم الرحيم الغفار». وخرج من الخشبة، يخاطب الجماعة التي لا تحصى، بالتوبيخ على سوء فعلهم من غير جرم يستوجب ذلك. والناس قد تعجبت لذلك. وقالوا: إنّ هذا وليّ ذو جلال، فلا تضرّه النار، ولا تقوم به الجمال. فيحنئذٍ طلب دواة وقرطاساً، فجاؤوا بهما إليه، فكتب على الورقة:

ألك رضا بأن عظمي تخلّه ---- أم لك رضا بأن الأرض دمي تقلّه

ثمّ رمى بها في الهواء إلى جهة القبلة. فرجعت إليه والناس قد رأتْ رجوعها إليه وما كتب فيها، فإذا في قفاها بخطّ جليّ **«فلي الأمر كلّه»**. فسكت حينئذٍ وقال: **«إنّا لِلّهِ و إنّا إليْهِ راجِعُون » «و سيعْلمُ الّذِين ظلمُوا أيّ مُنْقلبٍ ينْقلِبُون »**.

وفي رواية عمن كان حاضراً : أنه قد كتب في الورقة هكذا: **"ربي ربي إني مغلوب فانتصر"**. ثم رمى بها في الهواء نحو القبلة ، فرجعت إليه: **" يا بن مكي، إن كنت عبدي فاصطبر"**. ويحتمل أنه كتب على ورقتين، فتصح الروايتين ـ والناس حال الكتابة يرونه ، ولما رماها نحو القبلة أيضاً رأوه ، وحال رجوعها إليه رأوها. وهذه كرامة ومنقبة من مناقبه وكرامة له قدس سره.

وكلّ ما فعلوا بالشيخ الشريف الشهيد، والناس مع كثرتها ترى ما فعل به، وما ظهر منه من الكرامات، فلا يرجعون ولا يندمون لما رأوا ما يدلّ على فضله وجلالة قدره، وعظم شأنه عند الله سبحانه وتعالى. بل قال ابن جماعة ومن تابعه: ابن مكّي لا بدّ إن خرج من أيدينا ولم نقتله فلا يبقى منا أحد إلّاوقتله، وكلّ الناس تميل إليه زيادة عما مضى، لما رأوا منه ما رأوا من عدم حرقه بالخشبة، وعدم قيام الجملين، وما رجع إليه في الورقة على اختلاف الروايتين. فحينئذٍ بعد كتابته للورقة، وسكوته وخوفهم بأن ينعكس عليهم السوء. اتّفق ابن جماعة وقاضي المالكية على قتله. فضرب بالسيف، ثمّ رفع على خشبة قدر ربع ساعة ثمّ نودي على إحراقه بعدما أنزلوه عن الخشبة. فاجتمع حطب كثير، وأضرموه بالنار، وشبّهوا للناس أ نّه [أ نّهم] أحرقوه بالنار، إطفاءً للكرامة التي صارت له أوّلاً. ولمّا أضرموا له ناراً عظيمة قد كانوا وضعوها في مكان، ودفنوه في عصرية يوم الخميس تاسع جمادى الأُولى سنة [786] هـ . ولمّا فعلوا به ما ذكر، لم يكن بأمر برقوق، ولا أُخبر بقتله قبل. لكن قد نقل الثقات من أهل القدس والخليل، أنّ اليوم الذي قتل فيه الشهيد شمس الدين محمّد بن مكّي، بينما بيدمر في جلسة بالقدس الشريف، وعنده جمع غفير في ديوانه، قرب ألف رجل ونيّف، إذ قد سقط بين يديه ورقة بسرعة، ولها دويٌّ حال سقوطها. فتعجّب الجماعة، وبادروا إلى النظر فيها، فإذاً فيها: (واهاً ثمّ واهاً لقوم أمروا أو باشروا أو استحسنوا سفك دم شمس الدين، وويلاً ثمّ ويلاً على فرقة ارتكبت قتل محمّد بن مكّي البرّ الأمين. وبعداً وسحقاً لطائفة هذه طريقتهم، وجرى على ذلك سمْتُهم). فتعجّب - والقوم - من ذلك. فركب سريعاً مسافراً إلى الشام قائلاً: لعلّ ابن مكّي ما قد وقع به قد ظُنّ أ نّه بأمري أو بعلمي. فلما دخل الشام، فاتّفق أ نّه قد مرّ على المكان الذي قتل فيه الشيخ شمس الدين محمّد بن مكّي فحينئذٍ[ظ] قد عثر به جواده، وقد سقط

على وجهه مغشيّاً عليه. ثمّ أفاق فتشاءم وتطيّر من ذلك الحصان. فقيل له: «إنّ الفاضل البدل المولى الشريف شمس الدين محمّد بن مكّي قد قتل به، وفعل به ما فُعل في هذا المكان». فقتل من قد قتل وغضب على من قد غضب عليه. وقد ضرب من قد ضربه منهم، وصاروا في أقبح الحالات، فكما تدين تدان. فسبحان الملك الديان، فلحوم العلماء مسمومة، وعواقب الظلم وخيمة مذمومة. وبقيت الندامة والحسرة على: (خ ل: في) أهل الشام، وعلى الذين رضوا وسعوا من أُولئك القوم اللئام حتّى قد وقع عليهم الخسران والمضرات، وأنواع المشقات، ما لو ذكرتها لاجتمع كراريس ولم يمكن شرحها في القراطيس. ثمّ أمر بيدمر بأن يُبنى عليه قبّة عظيمة، ويكون مزاراً مشهوراً وبالخير يكون دائماً مذكوراً، فبُنِي عليه قبّة عظيمة. وما جرى عليه من الواشين والمرتدّين، فله أُسوة بما قبله من الأئمّة المعصومين الأكرمين، وبالأنبياء والمرسلين؛ لأنّ مصائب الخلق على قدر منازلهم لديه، وابتلاءهم بالنسبة إلى مراتبهم وإقبالهم عليه؛ لأنّ الله العالم بمصالحهم في أُولاهم وأُخراهم، والحمد لله وحده.

* * ** * ** * ** * ** * ** * ** * ** * ** * ** * * *

وقد ذكر الشيخ الفاضل الصالح الشيخ محمّد بن عليّ بن الوحيد البتدّيني (من بتدين اللقش جنب جزين)، في مجموع له قد كتبه بخطّه جميع أحوال الشريف الشهيد شمس الدين محمّد بن مكّي، من حين مولده، إلى حين مقتله في عصرية يوم الخميس تاسع شهر جمادى الأُولى سنة [786]، على نحو ما ذكرناه، إلّافي يسير من بعض الألفاظ، قد ذكرها جميعاً من غير اختصار، كما ذكر في غير موضعٍ بعضُ الأصحاب. وممّا ذكره الشيخ الفاضل المجيد محمّد بن عليّ بن الوحيد في مجموعه هكذا صورة ما ذكره:

لقد كان شيخنا الفاضل المحقّق المدقق، علامة دهره ووحيد عصره، عديم النظير في المشارق والمغارب. أقرّت لفضله فضلاء الأعاجم والأعارب. ولقد جدّد شعائر سنن الحنيفية، وشيّد دين الفرقة الاثني عشرية في جبل عاملة. وبه اقتدى بعده من رام تحصيل الفضائل، وعلى طريقته جرى من تحلّى بالوصف الكامل. قد أمر ورغّب في تعمير مساجد الله، وأشاد بنيانها، ورتّب وظائف الطاعات فيها، وعظّم شأنها. ولولاه لارتدّت أهل جبل عاملة مِن أكاذيب المدّعي الساحر اليالوشي. وارتدّ من أمثاله من كلِّ جاهل واشي. فواللهِ لقد كان سبباً للخير في تلك الأرض، ومفتاحاً للدين، ومن ظُلمة الجهل أخرجهم إلى النور المبين، إلّاالذين سبق في علم الله أ نّهم لم يزالوا في ضلال مبين ۶. ولمّا قتل اليالوشي ونحن معه، فاجتمع أهل السواحل وغيرهم من الأمصار في البلادالشامية، فقال:

أيها الناس، فلا يكن في صدوركم شي ء على اليالوشي الساحر الكاذب المرتّد [عن] طريق الحق. ولا يتوهّمنّ أحدٌ منكم أ نّه كان منفرداً بما كان يفعل من الخيالات بالسحر، وما أظهر بالحركات السيماويّة والشعابذيّة [كذا] بل يكون غيره أعظم شأناً في العلوم، وأرفع منازل في سائر الفنون. ولكن لا يعمل ما رأيتم منه إلّاالمستضعفين في الدين القويم، والمستخِفّين بقول الرسول النبيّ الكريم، الأئمّة الهداة إلى الصراط المستقيم. وإنّي لأعلم خمسة وعشرين علماً، أدناها ما كان يستعظمه ويعمل به اليالوشي. وإنّ الله سبحانه لا يرضى بأن يعمله أحد إلّالدفع سحر ساحر، أو ليدفع به دعوى من ادّعى بهذه العلوم النبوة. أو ادّعى شيئاً لا يجوّزه صاحب الشرع الشريف، صوناً للدين

الحنيف، وإطاعةً لله ربّ العالمين، وللنبيّ وآله الطاهرين، وحفظاً لأسرار ربّ العالمين.

* * ** * ** * ** * ** * ** * ** * ** * ** * ** * *

وروي عن السيّد الجليل النبيل السيّد محمّد بن أحمد الموسوي البعلبكي، قال: كنّا في بعض أسفارنا في بلاد الغرب، مع شيخنا العالم العلّامة، النجيب الأصيلِ البدلِ النحريرِ، الفاضل المتبحّر، صاحب الكرامات الخارقة، والأنفاس الصادقة، والأحوال الفاخرة، والأنوار الباهرة، والمقامات العالية، والمناقب السامية، والمواهب الجزيلة، والأوصاف الجميلة، الشريف أبي عبد الله الشهيد شمس الدين محمّد بن مكّي المطّلبي. وكنا سائرين مع قافلة عظيمة، قرب ثلاثمائة نفسٍ، في برية واسعة، في ليلةٍ مظلِمة، وكانت ليلة تاسع والعشرين من شهر رجب قرب الصبح ساعاتٍ ونصف [كذا]. بينما نحن سائرون في تلك الليلة، إذ قد أرعدت وأبرقت ونزل المطر الغزير، وضلّت القافلة عن الطريق، وضربها الريح إلى مكان سحيق. والناس سائرون، وهم حائرون، والناس لا يدرون إلى أيِّ جِهةٍ ينقلبون، وهم في شأنهم مضطربون، فحينئذٍ أمر شيخنا الشيخ شمس الدين محمّد بن مكّي بأنّ القافلة تقف وتجتمع ثمّ أ نّه جدّد وضوءه، وصلّى ركعتين، ورفع يديه ودعا. فلم يكن إلّاقدر طرفة العين، إلّاوقد سطع نورٌ من السماء إلى جانب القافلة، شبه عمود كالمنارة، فأضاءت الدنيا، واهتدوا إلى الطريق بقدرة الله الهادي إلى سواء الطريق .

* * ** * ** * ** * ** * ** * ** * ** * ** * ** * *

وذكر لي الصالح الزاهد العابد الشيخ حسين بن محمّد الوحيدي البتدّيني، قال: بينما الشيخ الشريف شمس الدين يكتب ويؤلِّف كتاب الدروس. وهو في مدرسته برأس النبع ، إذ قد دخل عليه رجلٌ ذو هيبة ووقار تكاد أن تذهل لحسن منظره وهيئته القلوب والأبصار. فأحسن الصحبة معه كثيراً، وعظّمه تعظيماً جليلاً، وجرى بينهما من المسائل الفقهية والأحاديث المروية كثير. وممّا سُمِع من الرجل ذي الهيبة والوقار يقول للشيخ الشريف شمس الدين محمّد بن مكّي: هذه العبارة التي ذكرتها في كتابك الدروس، ما قصدته من معناها والعمل بمقتضاها حقّ وصدق، لكن الناس لا يفهمون قصدك، ولا يبلغ فهمهم مقدار فهمك، ويقعون في الشطط والغلط إن أخذوا بظاهرها، ينبغي أن تُغيِّرها إلى كذا وكذا. ثمّ كلّمه بكلام سرّاً خفيفاً، ونحن في جانب من المدرسة قربهما، فأقبلتُ بوجهي نحويهما، فغاب عني ولم أره قطّ. فتعجّبتُ من ذلك. فأقبلتُ على الشيخ ومن كان حاضراً، فقلت: يا شيخنا، ما هذا الرجل الذي ما رأيناه. قبل هذا دخل إلى هذه المدرسة، ولا رأينا نظيراً له ولا أعظم منه هيبة ووقاراً. فضحك الشيخ، وكلّمنا بفائدة أُخرى بغير ما سألناه، ولم يخبرنا. فعلمنا أنّ الشيخ لا يريد أن يُخْبِر به. فصار بعضنا يتكلّم مع بعض، واتّفق رأينا على أ نّه المهديّ (صلوات الله وسلامه عليه).

* * ** * ** * ** * ** * ** * ** * ** * ** * ** * *

وذكر الشيخ الجليل الشيخ محمّد بن الخازن الحائري، أ نّه قد أجازه شيخه الفاضل المحقّق، شمس الحقّ والدين محمّد بن مكّي، بالأحاديث الأربعين المرويّة عن النبيّ صلى الله عليه و آله في فضيلة العلم وحامليه. وهي من الأحاديث الغريبة التي تفرّد بروايتها الشهيد قدس سره، وهي عندي بخطّ

الشهيد، قال: أمّا رواة هذه الأحاديث لا يخفى فضلهم على ذوي الأبصار، ولا يُنكِر جلالة شأنهم أحدٌ في الأعصار والأمصار. فأمّا شيخنا وإمامنا، العالم الفاضل الزاهد، الشيخ الشريف شمس الدين محمّد بن مكّي المطّلبي، كان عالماً ماهراً فقيهاً محدِّثاً مدقِّقاً متبحّراً كاملاً، جامعاً للمعقول والمنقول، زاهداً عابداً ورعيّاً [ورِعاً]، شاعراً أديباً منشئاً، فريد دهره، وحيد عصره، بل عديم النظير. إليه انتهت رياسة المذهب والملّة. وبه قامت قواطع البراهين والأدلّة. قد جمع فنون العلم، فانعقد عليه الإجماع، وتفرّد بصنوف الفضائل، فبهر النواظروالأسماع، أرّجت أنفاس فوائده أرجاء الأقطار، وأحيت كلّ أرضٍ نزلتْ بها، فكأ نّها لبقاع الأرض أمطار، تصانيفه في وجه الأيّام غُرر، وكلامه في عقود السطور دُرر. إلخ.

* * ** * ** * ** * ** * ** * ** * ** * ** * ** * ** * ** *

وقال الشيخ الفاضل الجليل، صاحب الهمّة العليّة، والأوصاف السنيّة الشيخ محمّد بن عبد العلي النجدي العاملي في مجموعته التي رواها عن شيخه بالقراءة والإجازة قال: فضائل شيخنا وإمامنا المحقّق، والبدل النحرير المدقّق، الجامع بين منقبة العلم والسعادة، ومرتبة العمل والشهادة، الإمام السعيد أبي عبد الله الشهيد شمس الدين محمّد بن مكّي المطّلبي، (أعلى الله درجته كما شرّف خاتمته) فأكبر من أن تُحصى أو تُذكر، وأعزُّ من [أن] توصف وتسطر. كان الإدراك عن كنهه قاصراً، والعلم عن كفايته فاتراً. وهو كريم الأبوين، عظيم القدر في الخافقين، فائق في العلم والحكمة والآداب، فاضل نحرير في مراسم السؤال والجواب، عالي الهمّة، كبير النفس، بعيد الغور، قويُ الحدس، لطيف العبارة، وجيز اللفظ، دقيق الإشارة، ثابت الرأي في البأساء والضرّاء، عادل في الخصومات، كامل في الأحكام والحكومات، عارف بتصاريف الأُمور، واقف على ضمائر الجمهور، عذب الكلام، رحيب اليدين، عالي الهمّة في تحصيل المرام، كثير المناقب والكرامات، والى المناصب في جميع الأوقات، بري ء من الأخلاق الذميمة، عريّ [كذا] الوحشة والنميمة، ناصح للملوك والسلاطين فيما يتعلّق بشأنهم، مُعرِضاً عمّا في أيديهم (خ ل: عن أموالهم)، شديد الأنفة في العار، معتقد للصالحين والأبرار، ليّن الجانب في المعاشرة، سهل العريكة في المطالبة. مقوّم أبناء جنسه، مربّي نوع الإنسان. يؤثر على نفسه إخوانه، حسن المداراة، صدوق في الأقوال، مصيب في الفراسة. مكارم أخلاقه في الآفاق مشهورة، وطيب أعراقه في الدنيا مذكورة. وجلالة قدره كبرتْ عن الذكر وتعالتْ، وسوابق نعمائه وأياديه على علماء الدهر درّتْ وتوالتْ، وشرف ذاته ومحاسن جوامع صفاته آيةٌ (خ ل: سنّة) يقتدي بها المتخلّقون، ويتحيّر فيها الواصفون. ما من إنسان إلّاوهو رطْب اللسان بذكر ألطافه وإحسانه واتّصافه. وهو غائصٌ في أنواع العلوم وجوامع الكلم. له اليد الطولى في أقسام الرياضيات على اختلافها، والأحاديث، والتفاسير، والأنساب، والتواريخ، ومعرفة أسماء الرجال وأنسابها، والأسانيد وأوصافها. فطِن للمعالي، محسن للأعادي، مستفيد من العلويات، مدرك بالإشارات. دائم السرور بالله ممكّن. وافر الأُنس مع الطلاب والأصحاب. كثير الشفقة على الواحد والجمع. عالم بالحكمة الإلهية، حافظ الأسرار، مبغض الأشرار، قويُّ في حلِّ الرموز والبرهان، قد اطّلع على أحوال الماضية، له اليد العظمى في اللطائف الأدبية، والدرجة العالية في المعارف اليقينية. مظهر الرحمة والجود. مظهر المعدلة في الوجود. شأنه **«إنّك لعلى خُلُقٍ عظِيمٍ »**. بيانه **«ما هذا بشراً إنْ هذا إلاّ ملكٌ كرِيمٌ »[٣٠-٣٧](١٢:٣١)** .

قد استفدتُ من أنفاسه الشريفة في جميع العلوم، المنثور منها والمنظوم، وعرضتُ عليه بعض

خيالاتى، ونتائج أفكاري في خلواتي، فاستحسنها وأجازني بإجازة شريفة، وشرّفني بكلماتٍ لطيفة، ورفع شأني بكلماته المنيفة، إلى آخِر ما قاله. هذا موضع الحاجة في ذكر السعيد الشهيد شمس الدين محمّد بن مكّي، وذكر ترجمة أولاده الثلاثة، وذكر الإجازة التي كتبت لهم مع أُختهم فاطمة المدعوّة بستِ المشايخ قدّس [الله] أرواحهم.

* * ** * ** * ** * ** * ** * ** * ** * ** * ** * **

وقال الشيخ حسن بن سليمان الحلّي، في آخر رسالة قد ألّفها: فإنّ جميع ما ذكرته في رسالتي هذه عن شيخي وأُستاذي ومعتمدي، شمس العلوم والمعارف، الذي أشرقت بالفضل أقمارُه وشموسه، وزخر بالعلم عبابه وقاموسه. فدوّخ صيته الأقطار، وطار ذكرهُ في مناكب الأرض واستطار. وتهادتْ أخباره الركبان، وظهر فضله في كلّ صُقْعٍ وبان. قد علم من العلوم ما قام بها أحد مُضطلع، ولا ظهر على مكنونها مُطّلع. استنزل عصم البلاغة من صياصيها، واستقلّ بركاب [؟] البراعة فشفّع بنواصيها. إن نثر فما اللؤلؤ المنثور انفصم فطامه [؟]، أو نظم، فما الدر المشهور اتّسق نظامه. لم يزل مدرّساً في مدرسته برأس النبع [ص ١٥] ببلده جزّين. ولم يزل مجتلياً به وجوه [كلمات مشوّشة] مجتنياً من رياضه أزهار المحاسن والإحسان، إلى أن نكد عليه المرتدّين [المرتدون] والوشاة، من أبناء الزمان بعد أن أصلح العباد، وأحيا الدين في البلاد. حتّى انصرمت في العيش مدّته، وتمّت في الحياة عدّتُه، وهو شهيد. والله على كلِّ شي ءٍ شهيد. وله أشعار لطيفة، وقصائد شريفة، كلّها مشحونة بالحكم. وقد رأيت مجموعةً كتبت عن خطِّه الشريف، قرب أربعة آلاف بيت كلّها ممّا تفرّد بها.

ومن أشعاره اللطيفة الشريفة، وهذا الشعر قد سمّطه ولده وأنا أذكر الأصل وتسميطه وهو هذا:

وإنْ كثُرتْ أوصافُه ونعوته --- يجِدْ عندنا وُدّاً صحيحاً ثبوتُه

وهي قصيدة طويلة، كلُّها حِكم ونصائح. مضمون آياتٍ وأحاديث. قد كتبتُ عن نسخةٍ غير منقوطة بخطٍّ يصعب قراءته، فمن وقع نظره على خلل أو خطأ، فليُصِلحْه أصلح الله حاله [غير واضحة ولعلّها]: «بمحمدٍ وآله المكرمين».

* * ** * ** * ** * ** * ** * *

... ومنهم الشيخ الجليل جمال الدين أحمد بن عبد الله بن محمّد بن عليّ بن حسن بن متوّج البحرانى. وهو شيخ الإمامية في وقته كما ذكره ابن جمهور الأحسائي في عوالي اللآلي. وذكر في موضع آخر، أنّ فتاويه مشهورة في المشارق والمغارب. وهو مِن تلامذة الشيخ الفاضل فخر الدين ابن العلّامة، ومن تلامذة غيره في الحلّة السيفية المزيدية. وله تصانيف جميلة جدّاً، منها: منهاج الهداية في آيات الأحكام، يدلّ على فضله. ومن جملة إفاداته، أنّ الطلاق البذلي أعمّ من الخلع ومن المباراة، يصحّ حيث يصح إحداهما، ويصحّ حيث لا يصحّ إحداهما كما هو مشهور في زماننا. وله رسالة وجيزة فيما يعمّ به البلوى، وذكر فيها بحث قبلة البحرين بأنْ يجعل الجدي محاذي الطرف اليمنى، وليس قبلتها كقبلة البصرة كما ظنّه بعض متفقهي زماننا. ومنها كتاب مختصر التذكرة، وهو جيّدجداً. ومنها كتاب مجمع الغرائب والعجائب، وهو كما سُمِّي قد احتوى على فروع غريبة عجيبة ومسائل نادرة. وقبره بالجزيرة، جزيرة أكل [كذا] في المشهد المعروف بمشهد النبيّ صالح. وقد حكى الشيخ سليمان، وغيره من علماء البحرين: أ نّه كان كثيراً ما يقع بينه وبين الشريف أبي

عبد الله الشهيد شمس الدين محمّد بن مكّي مناظرة ومباحثة. وكانا في الأغلب يستويان، وتارةً قيل: إنّه كان يحصل الغلبة للشيخ جمال الدين أحمد بن متوج. وكانا يجتمعان في مكّة أكثر السنين ، وقيل: كانا بالحلّة فلمّا تفرّقا ورجع الشيخ جمال الدين إلى البحرين، واشتغل بالناس بأُمور الحسبة وفصل قضايا الشريعة وغيرهما. فاتّفق أ نّهما اجتمعا بعد ذلك في مكة المشرفة، الشيخ جمال الدين المذكور الشريف السعيد الشهيد شمس الدين محمّد بن مكّي، فتناظرا، فأفحمه الشريف الشهيد مراراً، فتعجّب الشيخ جمال الدين، فقال الشيخ الشريف الشهيد شمس الدين محمّد بن مكّي: «وما ليلنا إلّاسواء، وإنّما تفاوته أ نّا قد سهرنا ونُمْتُم». وقال له أيضاً: «سهرْنا وأضعْتُم».

* * ** * ** * ** * *

وكتب الكاتب في آخر المجموعة التي وجدت فيها الرسالة أيضاً اسمه ونسبه (إسم ونسب صاحب مختصر نسيم السحر) على النحو التالي: شرف الدين محمّد مكّي بن محمّد ضياءالدين بن شمس الدين بن الحسن بن زين الدين بن خيرالدين عليّ بن أحمد من ذرية الشريف أبي عبد الله الشهيد محمّد بن مكّي المطّلبي العاملي الجزّيني.

* * ** * ** * ** * *